الأمثال الشعبية ودورها في اعادة انتاج القبيلة في الواقع الجزائري

د/ محمد بن يوب

المركز الجامعي أحمد زبانة – غيليزان – الجزائر

مقدمة:

شكلت القبيلة احدى التكوينات الاجتماعية التقليدية التي ظلت فاعلا مؤثرا في اشتغال الامم والكيانات السياسية في البلاد العربية والآسيوية كما وردت في كتابات الانثروبولوجيا الاجتماعية، وخاصة في النصف الاول من القرن العشرين من خلال اعمال مالنيفوسكي ورادكليف براون وغيلنر ومونتيني.

غير ان البناء القبلي سرعان ما بدا يتعرض الى تفكيك وادماج في اطار كيانات واطر جديدة بدءا بالمشروع الاستعماري ثم الدولة الوطنية وانتهاءا بحركة العولمة التي تسعى الى تحويل العالم الى قرية كونية، تندمج فيها كل شعوب العالم. وبدا الاعتقاد يسود لدى الكثير من الفاعلين ان دور القبيلة والانتماء القبلي على وشك الاختفاء، الا ان الواقع اثبت ان هذا التنظيم الاجتماعي التقليدي قد بدأ الآن يشهد حالة انبعاث وانتعاش، إما بمعزل عن الدول او بايعاز منها، او بتوجيه من قوى خارجية الشيئ الذي حول المقاربات الانثروبولوجية نحو هذه السياقات الجديدة. وتطبيقا على الواقع الجزائري، فان الظاهرة القبلية قد ظلت تقاوم مشاريع المستعمر وحتى حركة البناء الوطني. وهي الآن نشيطة ومؤثرة سواء في شكلها القبلي،المذهبي او الجهوي. تتعدد عوامل انبعاث القبلية وتاتي في مقدمتها الامثال الشعبية، فكتعبيرات شعبية تسعى الى اعادة انتاج نفسها في وعي وسلوك الافراد على الرغم من ارادة النخب الحاكمة في الجزائر بناء دولة حديثة .

1- محاولات زرع قيم الدولة في الجسم الاجتماعي:

كانت الدولة الجزائرية في بداية الاستقلال في مرحلة ولادة سيتطلب بناؤها وضع خطة واعية تستجيب لمتطلبات الحداثة وفاءا لطموحات الحركة الوطنية.. وبما ان الدولة عملية يطول تشكيلها في الزمن حسب الظروف التي تواجهها هذه العملية، فان النخب الحاكمة الجزائرية كانت منذ البداية واعية بخطورة المشاكل والعقبات التي ستعترض بناء الدولة الفتية سواء تلك الموروثة عن العهد ما قبل الاستعماري، وتأتي في مقدمتها الانتماءات والولاءات تحت دولاتية- المهددة لوحدة الدولة والتي تساهم في اعادة انتاجها الامثال الشعبية.

ومنذ البداية تشكلت إرادة قوية لدى لدى النخب الحاكمة الجزائرية حيث أعلنت عن معارضتها لاستمرارية مثل هذا التراث الرجعي وأقرت الهويات الاجتماعية الجديدة (الدولة، المؤسسة، الجمعية... الخ).وأعلنت الدخول إلى التحديث والمجتمع العصري من الباب الواسع[1] تماشيا مع نظرة الخطاب الرسمي الشعبوي le discours populiste الذي ينفي الاختلاف المجتمعي[2]. ويؤكد على التجانس الاجتماعي والوحدة الثقافية النابعة من وحدات شمولية كلية، كالامة الجزائرية الوطن الجزائري، المغرب العربي، الامة الاسلامية، متجاهلا بذلك كل ثقافة غير الثقافة الرسمية والتي راهنت الايدولوجيا الشعبوية على سرعة استيعاب الشعب لها كبديل لثقافته من خلال بلورة مشاريع تنموية شاملة فقد اكد الخطاب الرسمي على دور الثورة الثقافية في تحقيق ذلك حيث جاء في الميثاق الوطني سنة 1976 إن " الدفع الثوري في المجال الثقافي يجب ان يساهم في رفع المستوى الفكري والسياسي للجماهير وتغيير العقليات بغية خلق الشروط النفسانية والابديولوجية دعما للاستقلال الوطني والتطور

الاقتصادي والاجتماعي"[3]. ومن هذه العقليات التي يجب تغييرها تلك التي ترتبط بالثقافة الانقسامية culture la segmentaire من قبلية، مناطقية وجهوية. وعلى هذا الأساس ركز الخطاب السياسي الجزائري منذ بداية الاستقلال على خطورة القيم القبلية من خلال إعاقتها لمشروع بناء الدولة، واعتبارها إحدى مظاهر التخلف وانطلقت عملية مواجهة الأفكار والمظاهر الثقافية القبلية ،بعدما قوضت الهياكل والأطر الخاصة بالقبيلة عبر إدخال بدائل شملت مؤسسات ومشاريع تنموية وتمدنية.

ولإنجاح ذلك أكد هذا التوجه على حتمية إحلال تفكير جديد ونظرة جديدة للحياة محل أساليب العيش المتوارثة التي تعتمد على التقليد. لقد ظل الخطاب السياسي يحذر من استمرارية القيم القبلية كمواجهات لأنماط التفكير والسلوك لدى الأفراد على أساس أن القبيلة والفتنة وجهات لعلة واحدة لما يترتب عن ذلك من أحياء العصبية القبلية بالتعبير الخلدوني والتي تظهر في ضعف التماسك الاجتماعي، التوترات الاجتماعية، ضعف الولاء للدولة لذلك فان أهم الوظائف الأساسية للثورة الثقافية هي: "محاربة النزوع إلى العنف المضر بالمجتمع والتزمت بالأفكار التعصبية الخاصة بالثقافة ونمط الحياة"[4].

وهكذا ستتوجه جهود النخبة السياسية الجزائرية من خلال مشروعها الثقافي نحو تأسيس نظام قيمي وطني تصهر فيه الانتماءات الما تحت دولاتية، من قبلية وعشائرية ومذهبية وجهوية في الاطار الوطني. كان طموح النخبة السياسية الحاكمة في الجزائر شانها شان النخب الحاكمة في دول العالم الثالث المنحدرة من محاربة الاستعمار هو النجاح في تكوين انسان جديد او انسان معاصر في مجتمع جديد، يصب في اتجاه خلق مواطن الدولة الحديثة [5] لا فرد مرتبط بعشيرة او جهة او مذهب او فئة، بما يعني ذلك تعميق الانقسامية الاجتماعية وتهديد الكيان الوطني. ولتحقيق هذا الهدف راهنت النخبة السياسية الجزائرية على التنشئة الاجتماعية باعتبارها وسيلة لتسريب المعايير والقيم والتمثلات الاجتماعية مما يترتب عنها تكييف نسبي للفرد في اطار حياته الفردية والجماعية[6].

وتعد التنشئة السياسية نسقها الرمزي المتكون سياسيا من بيان نوفمبر 1954 النظام الجمهوري، الهوية الوطنية(الإسلام، العروبة والامازيغية)، الوحدة الترابية، وهذا يعني محاولة إيجاد بديل للثقافة الانقسامية المتجذرة في المجتمع الجزائري حيث ينظر اليها كمجموعة وحدات متجاورة المتوارثة سواء كجهات وكقبائل واعراش معيقة للتطور تتطلب الظروف الجديدة إحلال ثقافة وطنية ثورية تقدس الوطن وتغرس قيم المواطنة.

وقد كانت التنشئة الاجتماعية والسياسية تستوجب خلق قنوات واجهزة ثقافية وايديولوجية وطنية من صحافة وإذاعة وتلفزة ومسرح وطني وسنيما لاداء دورها، الا ان الجهاز التربوي هو الذي سيكون له الدور الفعال في عملية التنشئة هذه. وعلى هذا الاساس تبنت الدولة الوطنية سياسات تعليمية ترتكز على إلزامية ومجانية التعليم ليدل ذلك على عزم الدولة بان تكون هي المرجع والمنظم للعملية التربوية، والتي أصبحت حقا لا بد أن يتمتع به كل الجزائريين بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية، المذهبية والجهوية ذلك ان "التربية هي هي حجر الزاوية في اي بناء محكم وهي المنشا الذي لا بديل عنه للاحساس لدى الانسان وتكوينه والقطب المشجع للشخصية الجزائرية، ونقطة الانطلاق لكل حياة فكرية خضية، وتتمثل على الاخص في الوظيفة التعليمية 7." وعلى هذا الاساس تزايد عدد التلاميذ والطلبة بمختلف الاطوار وتنامت معها اهمية التعليم لما يشكله من قناة اساسية لتنمية الولاء للوطن وللحراك الاجتماعي العمودي معا.

واذا كانت الدولة الوطنية تسعى من خلال التعليم الى تكوين اطارات بشرية قادرة على تسيير الاجهزة والمؤسسات التي استحدثتها في اطار بناء الدولة فانها ستمرر موازاة هذه العملية مفاهيمها وقيمها الايديولوجية صحيح ان المدرسة تكون التاجر والاداري والتقني للقيام بمهام محددة، لكنها في نفس الوقت تهدف الى غرس في النفوس مشاعر الانتماء الى الدولة كبديل عن الانتماءات الضيقة القبلية المذهبية او الجهوية.

2-الامثال الشعبية واعادة انتاج القبلية:

يعتبر انبعاث القبلية واحدا من اعقد الازمات التي لا تزال تعاني منها الدولة الوطنية الجزائرية شانها شان الكثير من الدول النامية الاخرى ذلك ان كثيرا من الاحداث اليومية من نزاعات وصدمات وضعف الاداء المؤسساتي وما يترتب عنه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية تحركها نوازع

تحت وطنية من قبلية وجهوية واثنية ومذهبية8 وهي تشتغل بشكل غير رسمي في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى الثقافي .

انه مؤشر على استمرارية الثقافة الانقسامية والتي تختلف عن الثقافة الوطنية الرسمية المراد ترسيخها ان لم نقل ثقافة منافسة. تطرح وتعالج الواقع بكل تناقضاته، انطلاقا من وحدات انثروبولوجيا جزئية9 التي ترسم حدود الهويات الثقافية المتعددة قاعدتها الاساسية تلك الاطر الجزئية المتجاهلة داخل هياكل التجمعية الدائمة بعكس المجتمع المصطنع والعابر[10]. ونعبر عنها بالوحدات وتندرج من الوحدة الصغرى للفرد مرورا بالوحدات الوسطى (العائلة، القبيلة، الجوار المنطقة، الجهة، المذهب.....) وصولا الى الوحدات الكبرى مثل الامة الغربية والامة الاسلامية والتي يمكن تخطيطها بدوائر المركز الواحد les cercles concentriques. ومن خلال معايشتنا للاوساط الشعبية في عدة مناطق من الجزائرلاحظنا ان الثقافة الانقسامية لا تزال راسخة وفعالة، ومن تجلياتها مجموعة من الامثال الشعبية التي تعيد انتاج هذه الوحدات، وخاصة تلك المتعلقة بالاسرة والقبيلة والجهة. وهي بذلك تعد مادة اولية ثرية للمقاربة السوسيو-انثروبولوجية. فكثير من الامثال الشعبية تتضمن عبارات تربوية توجيهية تحث على تمتين العلاقات داخل هذه الوحدات للفرد والجماعة معا وتؤكد على حتمية الانطواء تحتها ضد الاخر المشكل من الوحدات المذكورة، وتحث على الالتزام بمعاييرها وتقاليدها والتقيد بها. وعلى هذا الاساس يكون من الخطا اعتبارها مجرد شكل من اشكال الفلكلور على حد تعبير مالنسكي Malinski ، او مستند اثنوغرافي خاص باحوال الشعوب، وانما هي كلام يتضمن قوة معينة تدعو الى التحرك، بل يعتقد الكثير ان هذا الكلام يمارس اقوى انواع التاثير على مجرى الامور وعلى السلوك الانساني[11]. فهي كفن ادبي يمتاز من حيث الشكل بالايجاز والسجع والبلاغة وسهولة الفهم والحفظ وعذوبه عند سماعه، وسرعة النفاذ الى العقول والنفوس[12].

سنحاول سرد نماذج من الامثال الشعبية المتعلقة بهذه الوحدات التي تعمل على اعادة انتاج الولاءات التقليدية في وعي الفاعلين الاجتماعيين وقد حرصنا على ان يكون فضاء تداولها على قدر واسع جدا، فاخترنا بذلك الغرب الجزائري.

تطلب البحث الاعتماد على كثير من الاشخاص وخاصة كبار السن في جمع الامثال الشعبية المتعلقة بالقبيلة والمتاكدين من صحتها بحكم تجاربهم. كما لجات الى شرح مضمون هذه الامثال مبينا صلاتها بالموضوع القبلي بابراز الصورة القبلية المحكومة بقاعدة الدوائر ذات المركز الواحد. ومن ابرز الامثال الشعبية المناسبة مايلي:

اولا : صورة التضامن القبلي:

المثل1: ليد ما تصفق غي بختها.

المثل2: ما يحكلك جلدك غي ظفرك.

ثانيا: صورة تقديس الاخوة والقرابة:

المثل1: خوك خوك لا يغرك صاحبك

المثل2: قطرة دم خير من ميات صاحب

ثالثا: صورة رفض الدخيل على المجموعة:

المثل1: جاو من تافنة وركبوا على كتافنا.

المثل2: الشامي شامي والبغدادي بغدادي.

رابعا: صورة تفضيل الزواج الداخلي (بين الاقارب):

المثل1: الطريق اذا دارت خذ بنت العم ليا بارت.

المثل2: اللحم ليا خنز ياكلوه ماليه.

خامسا: صورة حب الذات الجماعية واعلاء شان افراد المجموعة:

المثل1: حمارنا ولا عود الناس

المثل2: موالفة ولا تالفة.

سادسا: صورة احتقار مجموعة قبلية وجهوية محددة:

المثل1: ميات رومي ولا ندرومي.

المثل2: اولاد عيسى لا باعو ما تشري، ولا هربوا ما تجري.

وهكذا تشكل هذه الامثال نماذج تعكس صورة الثقافة الشعبية في الجزائر والتي لا تزال تحتل جزءا من ذاكرة الفاعلين الاجتماعيين الى جانب التنشئة الاجتماعية الاولية [13] يتوارثها الابناء عن الاباء او عن افراد المجتمع ككل.

ماهو أكيد أن المعيش الجزائري يزخر بعدد هائل من الامثال الشعبية التي لا تزال راسخة في الذهنية الجزائرية ومنها تلك التي تبرز وتشجع على استمرارية العلاقات القرابية العصبية حسب مخطط دوائر المركز الواحد تخترق هذه العلاقات العصبية في تداول مصطلحات معبرة مثل الكتاف، البراني، اولاد البلاد،

اولاد الحومة، العروبية وقد سبق لكلودين شولي ان ابدت ملاحظات عديدة في هذا الميدان من خلال العلاقات اليومية حيث تتعامل المجموعات مع بعضها البعض على دوائر المركز الواحد[14]. واذا كان البعض يعتبر ان مثل هذه العصبيات المحركة للانسان الجزائري هي نتاج ممارسات او راهنة فان الشيئ الذي ينبغي الاعتراف به هو ان الواقع يحتم علينا القول ان العصبيات التقليدية الما تحت وطنية كموروث ماقبل سياسي لازالت فاعلة عنده.إنها تهيكل الرؤى والسلوكات السياسية للفرد الجزائري[15]، تعيد انتاجها عوامل مختلفة أهمها بعض الامثال الشعبية.

خلاصة:

فرض انبعاث القبلية في المجتمعات الحديثة على الانثروبولوجيا مقاربة مثل هذه المواضيع بأخذ بعين الاعتبار السياقات الجديدة التي وجدت مثل هذه التكوينات التقليدية نفسها فيها وهي المدن والدولة الحديثة وذلك بالتعمق في عوامل اعادة انتاجها ومنها الامثال الشعبية كجزء من التراث الشعبي.

تفرض علينا المقاربات الجديدة اخذ هذه الامثال كجزء من التراث الثقافي اللامادي باخضاعه للنقد والمراجعة .

ان الامثال الشعبية شان عناصر التراث الاخرى قد تحمل معها قيما سلبية مثل القبلية التي تسعى الدولة الوطنية الجزائرية الى استبدالها بقيم الدولة والوطن من خلال استراتيجيات ومشاريع مختلفة اهمها التنشئة الاجتماعية . وفي نفس الوقت تتضمن قيما ايجابية تفرض علينا توظيفها في راهننا لحل قضايانا المعاصرة كمحفزات على العمل والابداع اسوة بدول جنوب شرق اسيا الصاعدة التي اسست لنهضتها الحديثة انطلاقا من خصوصياتها التراثية الشرقية.

الهوامش:

1-محمد نجيب بوطالب سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة اطروحاة الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2002، ص37

2-Lahouari Addi, L’impasse du populisme, L’Algerie collectivité politique et Etat en construction tome1, ENAL, Alger, 1990, P15.

3-الميثاق الوطني 1976، المعهد التربوي الوطني الجزائر ص37.

4-الميثاق الوطني، مرجع سابق، ص92.

5-محمد جواد، صراع الدولة والقبيلة في الخليج العربي، ازمات التنمية وتنمية الازمات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت1997، ص89.

6-هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الاهلية للنشر والتوزيع، ط3، 1980، ص75.

7-الميثاق الوطني، مرجع سابق، ص96.

8-د.محمد بن يوب، القبيلة والدولة من الغزو الاستعماري الى عهد الدولة الوطنية، رسالة دكتوراه دولة في الانثروبولوجيا، جامعة تلمسان، 2010، ص327.

9-محمد بشير فضاءات ورهانات من خلال المثل الشعبي، اقتراب منهجي، مجلة الثقافة الشعبية، معهد الثقافة الشعبية، تلمسان، 1995، ص29.

10-Ferdinand TONNIES ,Communautés et sociétés, Paris, 1977

11-عيسى احمد، المجتمع العربي، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1961، ص184.

12-د.فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص108

13- Lahouari Addi, L’espace public et société en Algérie, le quotidien d’oran du 24/02/2004

14- Claudine Chaulet, Représentations des Dehors « espaces Maghrebins : pratique et enjeux » sous la direction de Nadir Marouf, ENAG, Editions URASC,Alger,1989, PP151-155

15-د.عبد الناصر جابي، الانتخابات، الدولة، المجتمع، دار القصبة، الجزائر للنشر، 1992، ص9، 31-34.